

المسلمون والغرب المسيحي ومستقبل العيش المشترك في ظل التعددية الدينية (دراسة تحليلية لوثيقة الأخوة الإنسانية)

Muslims and the Christian Western and the future of coexistence in light
of religious pluralism
(An analytical study of the human fraternity document)

ط.د. حميش امعر^{1*}، أ.د. بن علي محمد²

¹ جامعة أحمد زبانة غليزان (الجزائر)، مخبر الدراسات الاجتماعية والنفسية والأنثروبولوجية،

maamar.hamiche@univ-relizane.dz

² جامعة أحمد زبانة غليزان (الجزائر)، mohamedbenali912@gmail.com

تاريخ النشر: 2023-12-30

تاريخ القبول: 2023-07-27

تاريخ الاستلام: 2022-11-30

ملخص:

عرفت العلاقات الإسلامية المسيحية عبر التاريخ مواقفًا مضطربة ومتنوعة في الغالب، فقد شكّلت بعض الفترات جدلية كبيرة قامت ما بين القطيعة والتعارف، ولعلّ هذا الموضوع يُعد من بين أهم النقاط التي تركز عليها الرؤيتان الإسلامية والمسيحية في هذا العصر، من أجل وضع حد لهذا الاضطراب الذي أثر بشكل كبير على واقع سلم وأمن الأمتين الإسلامية والمسيحية، في ظل التطور والتحوّلات التي يشهدها العالم اليوم.

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تبيان راهن العلاقات الإسلامية المسيحية وتصور المسلمين للآخر المسيحي وتصور الغرب المسيحي للآخر المسلم، كما نحاول تحليل الخطاب الإسلامي المسيحي المعاصر والتصور المشترك لمخرجات حالة الانسداد والتصادم الحاصل في واقع التواصل والتعايش.

كلمات مفتاحية: المسلمون، الغرب المسيحي، العيش المشترك، التعددية الدينية.

Abstract :

Islamic-Christian relations throughout history have often known turbulent and different situations, as some periods constituted a great controversy that arose between estrangement and acquaintance, and therefore this topic is among the most important points on which the Islamic and Contemporary Christian visions are based, in order to put an end to this turmoil that greatly affected on the reality of peace and security of the Islamic and Christian nations, in light of the development and shifts that the world is witnessing today.

Through this study, we seek to clarify the current Islamic-Christian relations, Muslims' perception of the Christian part, and the Christian West's perception of the Muslim part. We also try to analyze the contemporary Islamic-Christian discourse and the common perception of outcomes of the state of blockage and collision that is occurring in the reality of communication and coexistence.

Keywords: Muslims, the Christian Western, coexistence, religious pluralism.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

يواجه المسلمون اليوم في ظل أزمته الحضارية، موقفا غربيا معاديا على العموم، ومستقبلا غامضا يزيد من تعقيد وضعية المسلمين الراهنة في العالم، ويؤثر على علاقتهم مع الآخر، ويدخل في جملة ذلك الغرب بمختلف توجهاته، ونخص بالذكر الطرف اللاهوتي المسيحي، فلا شك أن علاقته مع المسلمين شكّلت أزمة حقيقية منذ بداية الإسلام في مرحلته الأولى إلى يومنا، عكست الصورة الراهنة للفكر الإسلامي وأثّرت سلبا في العديد من الفترات في طبيعة التعامل مع المسلمين.

إن الحياة البشرية عرفت الكثير من النزاعات والصدامات التي خلّفت حصيلة كبيرة جدا من ضحايا العنف بمختلف أشكاله على مر التاريخ، ولقد ذاق الشرق والغرب مرارة هذه الأعمال طيلة عقود بل قرون من الزمن، فبعض البشر بفطرتهم يميلون إلى العنف ممارسة وتطبيقا ويسعون إلى بسط القوة وتحقيقها، من أجل التفرد والريادة وتحصيل السيادة، وفي المقابل يسعى البعض الآخر إلى السلم والتسامح وبسط قيم الرفق والملاينة في التعامل، وهو ما يشكل ديمومة جدلية العنف مع التسامح في حياة البشر.

سادت الكثير من التصورات على طبيعة العلاقات والتواصل بين الناس على مر الزمن ما بين قبول الآخر والاعتراف به و التعايش معه وما بين رفض الآخر وتهميشه واحتقاره وتفعيل القطيعة معه، وهو الحاصل اليوم في العالم ما بين المسلمين والمسيحيين، فلا يخفى علينا أن صورة الإسلام في هذا العصر قد تشوهت كثيرا، وموصوف المسلمين في كل مرة يغلب عليه الطابع السلبي، وهو ما يفسر موجة العنف التي يعاني منها المسلمون يوميا، والتي تحصد أرواحهم بالآلاف في جميع الأمصار دون مبالغة، فمن أعمال وحشية يتعرضون لها إلى خطابات الكراهية وأوصاف الازدراء والتحقير وغيرها.

إن صورة المسلمين في الثقافة الغربية والمجتمعات المسيحية وما يمثله الإسلام لهم، كانت ولا تزال أهم أهداف الدراسات الفكرية الحديثة والمعاصرة، خاصة تلك التي اختصت بدراسة الهوية الإسلامية وكل ما يتعلق بالمسلمين على مدى قرون من الزمن، لذلك تنبثق منها العديد من المفاهيم والتصورات عن الإسلام منها المنصفة والأقرب للمطابقة مع حقيقة الإسلام وشرائعه وحقيقة المسلمين وطبائعهم، وأكثرها تتحامل على الإسلام والمسلمين.

إن أزمة الفكر الإسلامي اليوم ليست أزمة أخلاقية تخص القيم، أو سياسية تخص المعاملات الخارجية السياسية والعلاقات الدبلوماسية فحسب، بل هي أعمق من ذلك بكثير، فهي تعني هوية المسلمين واضطراب صورتهم، وانعكاس ذلك على طابع العلاقات الذي غلبت عليه خطابات القطيعة المتكررة، والازدراء والتصغير لإنجازات المسلمين الحضارية، وغيرها من الصور المصنفة ضمن خانة اللا تسامح.

فمن أجل توضيح صورة الإسلام، كان ولا بد على المسلمين التعريف بأنفسهم وتقريب هويتهم للعالم بفتح فضاءات للحوار من أجل نبذ العنف، وتحقيق المصالح المشتركة، ولعل أبرزها العيش المشترك في ظل الاختلاف والتعددية الدينية والثقافية، فالعيش المشترك وتفعيل آلياته من أهم الغايات التي يسعى المسلمون لتثبيتها كتقليد قائم، من أجل بلوغ السلم والسلام ووضع حد للتطرف من كل الجوانب.

وفي وجود جدلية قائمة بين تيارات الفكر الغربي الديني، ودعاوى مختلفة، وتصورات متفاوتة عند رجال الدين المسيحيين، ما بين الاعتراف بالمسلمين وتاريخهم وحضارتهم وأخلاقهم، أو تجاوز ذلك بالقطيعة والتباعد، وفي ظل حالة المسلمين الراهنة المتميزة بالضعف والتراجع الكبير على عدة مستويات فنتساءل: كيف يمكن تجاوز عنف الآخر ونظرته للمسلمين في هذا العصر؟ وإلى أي مدى يمكن التأسيس للسلم والتسامح بين المسلمين والآخر لتحقيق العيش المشترك؟.

سنحاول أن نعرض في هذه الصفحات وضعية المسلمين ومنظور الآخر للفكر الإسلامي، كما سنقدم لمحة مختصرة حول طبيعة العلاقات المسيحية الإسلامية على مدى التاريخ والعصور ومحاولات رواد الفكر الديني الإسلامي والمسيحي المعاصرين فتح أبواب الحوار والنقاش من أجل تنفيس أزمات العالمين الشرقي والغربي لبلوغ السلام بين الشعوب الإسلامية والمسيحية، معتمدين في ذلك على المنهج التحليلي الذي يتلاءم مع وصف طابع العلاقات التاريخية، وأفاق الحلول والمخرجات الراهنة بين المسلمين والمسيحيين، ونأخذ على سبيل المثال بعض النماذج منها وثيقة الأخوة المعاصرة الموقعة منذ مدة قصيرة بين البابا فرنسيس وشيخ الأزهر أحمد الطيب.

1. أزمة الفكر الإسلامي وصورة المسلمين في الثقافة الغربية المعاصرة:

تمر الأمة الإسلامية اليوم بأصعب فترات وأحلك مراحلها على مر التاريخ، نظرا لحالة الانسداد في العلاقات مع الآخر في جميع الأحوال، ولا شك أن ذلك يؤثر سلبا على مستقبل المسلمين كثيرا، علما أن العالم بأسره يشهد نقلة نوعية في مجالات كثيرة منها حضارية ومنها سياسية، ووضع المسلمين في مصاف المهملين في العالم، نظرا للصورة التي يحملها الآخر عن الفكر الإسلامي وحياة المسلمين وموصوفهم، خاصة من منظور الغرب المسيحي.

صورة الإسلام التي تعممت في الثقافة الغربية، ساهم في رسمها بعض رجال الدين المسيحي، والكثير من المستشرقين والمفكرين، فزرعوا في الذهنية الغربية فكرة تأسست على بغض الإسلام والحقده على المسلمين، وسعوا إلى وضع مسافة فاصلة بين الغرب والشرق، وبذلك تُطمس حقيقة الإسلام، فما كان عليهم إلا نشر الأفكار التي تهم المسلمين جميعا وتنسب إليهم الكثير من الأعمال التي لا تنتمي للإنسانية، لذلك كانت الشعوب الغربية تعتقد في معظم فترات العصور الوسطى وإبان مطلع عصر النهضة في أوروبا أن الإسلام دين شيطاني يتضمن الردة والتجذيف والغموض (سعيد، 2005، ص.71)، وذلك لتخويف الناس من محاولة فهم الإسلام أو التعامل مع المسلمين أو محاولة معرفة ثقافتهم أو دينهم، أو التعرف عليهم.

وهذه الأحكام الظالمة المتعسفة الموروثة عن القرون الوسطى لا تزال حتى يومنا هذا (هونكه، 1995، ص.7) ولم تتغير اللهجة الخطابية في وصف الإسلام، فقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين الازدراء الظالم للمسلمين، الذي يصممهم جهلا وعدوانا بأنهم رعاة الماعز والأغنام والأجلاف، لابسو الخرق المهلهلة وعبدة الشيطان ومحضرو أرواح الموتى والسحرة وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، ولقد تربع على عرشهم الذهبي ماهومد (مخيمد) وقد ركعت تحت أقدامه قرايين بشرية يذبها أتباعه قربانا وزلفى إليه (هونكه، 1995، ص.11)، فغلبت هذه الصورة وطغت في ثقافة الشعوب الغربية عن النبي ﷺ وأصحابه الأوائل، أما عن المسلمين فهم يعتقدون أنه إذا قام الحكم الإسلامي فسيذبهم المسلمون (الشريف، 2003، ص.38)، ويمثلون بجثثهم ويغتصبون نساءهم وغيرها من الأعمال الهمجية التي تبعث الحيطة من المسلمين والخوف منهم، وتوسع فجوة التباعد (أصف، 2012، ص.ص. 104-106).

وأما عن أشهر الأوصاف المعاصرة التي تطل المسلمون وأعمالهم ويسود بها الكثير من المفكرين صفحات كتبهم، هي مقالة "انتشار الإسلام بالسيف" التي يرددها الغرب كثيرا وكانت أول الدوافع التي يستندون عليها في توجيه خطاباتهم القاسية، والانتهاكات ضد الفكر الإسلامي، وكانت أحد أسباب التباعد الاجتماعي والثقافي، ولا شك أنها أهم دعاوى القطيعة، ففريدريك موريس (FREDERICK Morris) يرى أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحا إلا عندما كان يهدف إلى الغزو والحروب والمعارك، والمونسنيور كولي (MONSIGNOR Cooley) فيرى أن الإسلام دين عنف وقام بالسيف وعلى أشد أنواع التعصب والتطرف، ويؤكد أن محمدا قد وضع السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدم القوانين الأخلاق ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالم لذات (أبو خليل، 2011، ص.6).

والمستشرق جورج سيل (GEORGE Sale) يرى أن محمدا قد أمر أتباعه أن يحملوا العالم على الإسلام بالسيف إن انقضت الضرورة (صبره، 1985، ص.64) وكارل بروكلمان (CARL Brockelmann) يذكر في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) أنه يتحتم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة، لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني (بروكلمان، 1968، ص.ص.78-79).

والمستشرق غلادستون (Gladstone) يدعي أن المسلم إنسان بلا إنسانية وبلا رحمة، ويقرر المسيو كيمون (MONSIEUR Kimon) في كتابه (ميثولوجيا الإسلام) أن الإسلام مرض مريع والديانة المحمدية جذام بين الناس، وأما المفكر لطفي لوفديان (LOTFI Lofdian) فيرى أن سلسلة تاريخ الإسلام كلها حروب وسفك للدماء ومذابح، وهو نفس ما يراه المستشرق الاسكتلندي ويليام موير (WILLIAM Muir) الذي يدعي أن سيف محمد والقرآن هم أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً (المحجوبي، 2008، ص.101).

فكل هذا التحامل لا يمكن تفسيره إلا إذا عرفنا دور الكثير من علماء الدين المسيحيين غير المنصفين الذين أثروا على الثقافة الغربية بكتابتاتهم، ومقالاتهم حول الآخر، فقد لعب كذلك هؤلاء الدور الرئيس في سوء فهم العالم المسيحي للإسلام، من خلال كتابات فقدت صوابها عند حديثها عن الإسلام ومصادره، وعن النبي ﷺ ومناسك الشريعة، فكانت كتابات صارخة وتحريضية، من أشهرها دحض السراقنة (Refutation of Saracens) أو دحض الهاجرين (Refutation of)

Hagaians) أو ضد محمد (Against Muhammad) (منصور، 2008، ص.ص.13-14) وغيرها من الكتب التي كانت سببا في دفع باقي الكتاب والمؤلفين لنشر قصص وروايات عن الفكر الإسلامي والمسلمين، مثل ما فعله دانتي أليجري (DANTE Allegri) وما وصف به النبي في كتابه الكوميديا الإلهية أو ملحمة رولاند الفرنسية التي تحت على استعمال العنف ضد المسلمين بدلا من التسامح أو الحوار.

إنّ الوصف الرهيب للإسلام في تصور الغرب اللاهوتي كان بفعل الأكاديميين المتعصبين المدفوعين والحاquدين على الفكر الإسلامي والمسلمين، فقد دأبوا على تناول هذا الدين وشق ثقافته في إطار أيديولوجي اخترعوه أو حددت الثقافة صورته، فامتلاً بالانفعال والتعصب المعهود في الدفاع النفسي وأحيانا بالنفور وهذا الإطار هو الذي يجعل تفهم الإسلام في غاية الصعوبة (سعيد، 2005، ص.75) فينقلون صورة خاطئة على تعامل الإسلام مع المرأة أو الأسرى أو في التفاهم والتعايش بين الشعوب، وغيرها من الأمور التي يتناقلها هؤلاء حول الإسلام، ولاشك أن هذا كان دافعا قويا لتفعيل القطيعة ضد المسلمين.

وبين هذا وذاك أصبحت صورة الإسلام أكثر سواد من النازية في المنظور الغربي، وزادتها تعقيدا الحملات التي تلت الحرب الباردة، وهجومات 11 سبتمبر 2001، فصار وضع المسلمين أكثر اضطرابا من ذي قبل، فتارة يُتهم المسلمون بالتخلف والرجعية، وأنهم أعداء الحضارة والمعارف تارة أخرى، وفي الكثير من الأحيان يُتهمون بالعداء والعنف والإرهاب (أوغستين، 2011، ص.48) فكانت هذه من أكبر الأسباب التي غلقت باب الحوار وأسست لاستحالة العيش المشترك بين المسلمين والآخر في هذا العصر، فلذلك نجد أن الحوار الفكري الطابع كان يشق طريقه بصعوبة (الحسن، 1997، ص.41) بين المسلمين والآخر المسيحي في هذا العصر.

2. الحوار الإسلامي المسيحي ضرورته - تاريخه - تحدياته - أفاقه:

يسعى رواد الفكر الإسلامي المعاصر من علماء وفقهاء وباحثين للوصول إلى أفاق مستقبلية تضمن التعايش السلمي مع الآخر، وتحقق العيش المشترك وسط موجة الإنكار والقطيعة الممارسة بشكل غير عقلاني وغير مسبوق في هذا العصر، ورغم أن تحقيق ذلك ظل صعبا في معظم الأوقات لكن وبالنظر لحاجة جميع الأطراف إلى وضع حد للصدام الذي خلف من وراءه أحقادا وضغائنا أثرت

بشكل مباشر في السلم العالمي، وخلقت فجوة كبيرة بين الأمتين، فأصبح لابد من حوار فكري وديني هادئ يكون وسيلة لتنفيذ الأزمة و منع انفجارها (السماك، 1998، ص.79).

نجد في تاريخ العلاقات الإسلامية والمسيحية الكثير من المبادرات السلمية التي تعكس طبيعة التعاملات بين الطرفين لتنفيذ الأوضاع والعمل معا على توطيد العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين، فلا يخفى علينا أن أول تعايش بين المسلمين والمسيحيين كان على أرض مسيحية وهي الحبشة، في زمن الحاكم النصراني النجاشي، التي تزامنت مع مرحلة ضعف المسلمين قبل الهجرة (ابن هشام، 1995، ص.408).

وبعد دستور المدينة الأخلاقي الذي أقره النبي ﷺ بعد الهجرة مباشرة، وما فعله مع النصارى واليهود (حميد الله، 1985، ص.57) ورسائله إلى ملوك المناطق المسيحية في الحبشة والبحرين والشام وإلى قيصر الروم (حميد الله، 1985، ص.ص.99-128) تدرك مدى حرصه ﷺ على رعاية حقوق العيش المشترك بين المسلمين والآخر، وتفعيل الطرق السياسية السلمية بين الطرفين، وحتى معاهدات الخلفاء من بعده كانت مثيلة لما فعله النبي ﷺ، فمثلا خلافة عمر بن الخطاب، تتميز بسمو وإنسانية معاهداته ومواريثه للآخر المسيحي، مثلما فعل مع أهالي فلسطين وبلاد الشام (حميد الله، 1985، ص.457).

فالمسلمون عبر التاريخ عملوا بمقتضى ما أوصى به الرسول ﷺ، وهو التعامل بالرفق والتسامح مع الناس جميعا، مع الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم فلا يلجأ المسلمون إلى خداعهم أو إلحاق الضرر بهم، أو ممارسة أساليب الاضطهاد، لذا حرص على تفعيل ذلك الخليفة الصديق ﷺ وشدد على احترام النصارى ولدير عبادتهم، واحترام المواثيق والعهود التي أعطيت لهم (خان وعلي، 1947، ص.ص.18-19) كما أوصى بالعمل الجدي المطلق وفق ما تقتضيه العهود الإسلامية للآخر المسيحي، وهذا أصل ثابت لا يمكن التلاعب به، أو الاستهانة والتهاون في تحقيقه.

كما نجد في مرحلة الخلافة الأموية في عهد عمر بن عبد العزيز طابعا مميزا للعلاقات السياسية بين المسلمين والمسيحيين الأرثوذكسيين، وتمثل ذلك في الرسائل المتبادلة بين الخليفة الأموي والإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الإيسوري (LEO 3 Lsaurian) (منصور، 2008، ص.73) وفي المرحلة العباسية امتزج بلاط الخليفة بالكثير من أصحاب الملل والنحل والأديان بالمسلمين وكانوا

يُقيمون المناظرات وتُعقد جلسات الحوار والجدل بحضور الخليفة المأمون في جو من الاحترام والتسامح (السباعي، 1998، ص.69) فالتعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية مبدأ إسلامي أصيل دلت عليه النصوص وطبقه المسلمون طوال تاريخهم (إدريس، 2011، ص.82).

وفي التراث الغربي هناك بعض المحاولات من الأكاديميين والمفكرين الغربيين خاصة من تأثر بحضارة المسلمين، وأخلاقهم ومناسكهم، قد أظهروا اهتماما بالغاً بالمواضيع الإسلامية، وشؤون المسلمين وخصائص الدين الإسلامي، نذكر منهم البيدا الفيرا بليه (ELPIDA Venera Bleh) ومنهم بيدرو إبلاردو (PEDRO Abelardo) وإيدلاردو دي باث (IDELARDO De Bath) ونيقولاس دي لوسا (NICOLAS De Lusa) وكانت دراساتهم بعيدة عن العنصرية، فلم يدخل هؤلاء مجابهة العقيدتين في بحوثهم، ولم يقوموا بإقصاء الآخر المسلم، وهذا قد فتح باباً في منتصف القرن الخامس عشر للكتابة الموضوعية الغربية عن الإسلام (مونتاييت وبرافو، 2015، ص.ص. 213-214).

وفي رسالة البابا غريغوريوس السابع (Gregory 7) لأحد حكام الجزائر جاء فيها أن هناك حسنة متبادلة بين المسيحيين والمسلمين دون سائر شعوب الأرض، ذلك أنّ المسيحيين والمسلمين حسبهم يؤمنون ويعترفون بإله واحد، وإن يكن بطرق مختلفة، وهم يعبدونه ويمجدونه كل يوم كخالق ومدبر للكون (حوراني، 1994، ص.19) ورغم أن البابا غريغوريوس اشتهر بالتعصب ولكن هذه المحاولة من شأنها أن توقف الكثير من أعمال وممارسات العنف بين المسلمين والمسيحيين ومن شأنها كذلك أن تفتح فضاء للعيش المشترك.

وقد قارن المفكر جورج ديفوار (GEORGE D'ivoire) في كتابه (الإسلام يتقدم) بين مميزات الفتح الإسلامي ووحشية الحروب الحديثة، ففتح المجال أمام الغرب لإعادة النظر والتحقق من أحكامهم حول الإسلام من خلال المقاربة بين أفعالهم ومختلف أعمالهم مع المسيحيين، وبين الغرب المعاصر الحضاري المادي وما يرتكبه من عنف ضد البشر على الأرض (خان وعلي، 1947، ص.ص. 18-19).

وفي هذا العصر إن قلّ ذلك إلا أنه يبقى موجوداً، على غرار ما ذكره الدكتور جونسون (Johnson) الذي يرى أن العالم بربرياً ما عدا العالمين الإسلامي والمسيحي، أو الأستاذ جوزف هوايت

(JOSEPH white) الذي يثني على النبي ﷺ وأخلاقه التسامحية في محاضراته في جامعة أوكسفورد، كما قام العديد من الغربيين بترجمة القرآن إلى اللغة الإنجليزية، وإلى اللاتينية، ومنهم من ألف حول حياة المسلمين وتاريخ حضارتهم وعلومهم، وهذا كله يبين قبول الآخر المسلم عند المسيحيين، واعتقادهم الجازم بأنه قدم دورا مهما في هذا العالم (حوراني، 1994، ص.21).

وكما نلمس ملامحا للإنصاف في موقف الكنيسة الكاثوليكية (روما) من تهجم الغرب بعد حادثة برج التجارة في نيويورك، فقد تبرأ القس الكاثوليكي باسكوالي بورجوميو (PASQUALE Borgomio) من قرار الغرب الحضاري في قتالهم وانتهاجهم العنف والقوة بسبب هذه الأحداث فقال: (في الوقت الذي يدعوا الفاتيكان إلى التعقل و يشجع العمل الدبلوماسي ويدافع عن القانون الدولي نرى في الجانب الآخر قوة عظمى تقودها إدارة خولت لنفسها مهمة إنفاذية مقدسة واتخذت لهجة ومواقف صليبية) (عمارة، 2008، ص.ص.47-48) فالآخر الحضاري يتخذ من الدين درعا لتطبيق وتحقيق المصالح المادية وهذا ما تفتن له القس يوحنا الذي عارض موقف الغرب من الإسلام (عمارة، 2008، ص.48)، وهذا يلخص لنا مبدأ الكنيسة الكاثوليكية المعاصر.

فمن جانب المسلمين فباب الحوار دائما مفتوح، فهم يعترفون بجميع الشرائع والمثل والنبوءات والرسالات وسائر الكتب والصحف والألواح التي مثلت وحي السماء إلى جميع الأنبياء والمرسلين منذ فجر الرسالات السماوية وحتى لآخر وخاتم هذه الرسالات وفق هذا الاعتراف هنا كالقداسة والتقديس والعصمة والإجلال لكل الرسل، وعملا بقوله تعالى ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ {العنكبوت: 46} وهو ما حصل في حوار بابا الفاتيكان فرنسيس مع شيخ الأزهر أحمد الطيب منذ مدة وتجسد ذلك في وثيقة الأخوة الإنسانية.

3. المسلمون والآخر المسيحي وأسس التنظير للعيش المشترك والتعايش السلمي – تأملات في وثيقة الأخوة الإنسانية :-

إن نظرة المسلمين للآخر المسيحي سواء كان يعيش معهم في مجتمع واحد، أو تربط بينهما علاقة تجارة أو سياسة أو جوار، أو أي تواصل بأي شكل من الأشكال، لم تختلف في حقيقتها ونحن نقصد المسلمين منهم، ممن لم ينازع المسلمين بسلاح أو خطاب كراهية أو عنف، فقد قال الله عنهم في

كتابه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَّسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا سَتْكِرُونَ ٨٢﴾ {المائدة: 82}.

إنّ هذا الاعتراف القرآني بأخلاق بعض رجال الدين المسيحيين، يدل على منزلتهم عند المسلمين، وطبيعة التعامل معهم، وواقع التعايش معهم يؤكد البطريرك تيودوسيوس (Theodosius) من بيت المقدس عن علاقة المسلمين بالمسيحيين وجاء في قوله ما يلي: (إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام وهم لا يحاربون النصرانية بل على العكس من ذلك يحمونها ويدودون عنها ويوقرون قساوستنا ورهباننا ويجلون قديسنا) (هونكه، 1995، ص.20).

ومنها شهادة أخرى من بلاد فارس عن البطريرك يشوع باف الثالث في رسالة إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس يؤكد فيها تسامح الإسلام بحكم التعامل معهم وإدراك ما هم عليه من خلال الاحتكاك بهم والتعارف عليهم، فقد جاء في هذه الرسالة ما يلي (إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسنا وقديسي الرب وجودون بالفضل على الكنائس والأديار) (أرنولد، 1970، ص.102).

ومنذ مدة غير بعيدة تجلت بعض الملامح التي تبعث نوعا من أنواع السكينة في طبيعة العلاقات المسيحية الإسلامية، تمثلت في وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي التي وقعها شيخ الأزهر الشريف أحمد الطيب وبابا الفاتيكان فرنسيس بدولة الإمارات المتحدة، فكانت حلقة أخرى تُضاف إلى سلسلة الأعمال الإنسانية ذات الطابع التسامحي الذي يكفل العيش المشترك، التي نظّمها المسلمون مع المسيحيين عبر التاريخ.

ضمت هذه الوثيقة الإنسانية الأخلاقية مجموعة مبادئ وبنود وأعراف نصت عليها الديانتين الإسلامية والمسيحية لمواجهة مشاكل الأمم السياسية والثقافية والاجتماعية، وقد تم تلخيص كل ذلك في (18) صفحة، استُملت هذه الوثيقة بأهم مبادئ تأصيل الأنسنة وحقوق البشر ألا وهي المساواة بين الناس جميعا (الطيب وفرنسيس، 2018، ص.1) بين الذكر والأنثى وبين الأسود والأبيض بلا تمييز أو تفریق.

فقد جاء في رسالة بولس الثانية لأهالي كورنثوس ما يلي: (فإنه ليس لكي يكون للآخرين راحة ولكم ضيق 13 بل بحسب المساواة لكي تكون في هذا الوقت فضالتكم لإغوازم كي تصير فضالتكم لإغوازم حتى تحصل المساواة 14) (2 كو 13: 8-14)، أما في القرآن الكريم فيذكر الله الناس بأصلهم حتى لا يتفاخر ولا يتعالى بعضهم على بعض، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ {الحجرات: 13}.

والنبي ﷺ يوم فتح مكة ذكّر الناس بحقوقهم المتساوية، ونهاهم عن أفعال الجاهلية والاستعلاء والتفاخر بالأبواء والأنساب ثم ذكرهم بأصل خلقهم من آدم، وأنّ آدم من تراب ثم تلا هذه الآية (الترمذي، 2014، ص. 364) والمساواة الإنسانية بلا شك هي الركن الأساسي الذي لو تحقق لتوقفت حروب العالم وعنف البشر ولتسيّد التسامح مشارق الأرض ومغاربها.

كما جاء في الوثيقة دعوة عامة لنشر قيم التسامح والمحبة لكي يعم السلام بين الناس ومن أجل تحقيق سبل العيش المشترك، وفيها تذكير بحرمة الأرواح وحرمة إزهاقها، ودعاوى لبند الحروب ومختلف أشكال العنف والتعصب والظلم دون إقصاء أو تمييز، وهو ما جاء في الوصايا العشر في العهد الجديد في إنجيل متى وأهمها تحريم القتل (متى 19: 18)، وهو ما يتضمنه القرآن الكريم في العديد من الآيات منها (النساء: 93) و(الإسراء: 33) و(المائدة: 32) و(الفرقان: 68-69) وفي الكثير من الأحاديث النبوية، فالإسلام يريد أن يعيش الإنسان في جو الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعا يرفع الإنسان في سلوكه مع نفسه ومع غيره (عبد السلام والسايح، 2006، ص. 35) لكي تتحقق مقاصد الدين في ضمان السلم والأمن للناس جميعا.

فوثيقة الأخوة الإنسانية حذرت من استمرار وضع البشرية على ما هو عليه من استخفاف بالأرواح، حتى أصبح تعداد الضحايا في هذا العصر لا يقارن مع ما سبقه، فالحروب ذات طابع الديني في المراحل متقدمة وإن وصفت بالهمجية، إلا أنّ حصيلة عنفهم على مدى قرون لم تبلغ عُشر ما فعله الإنسان في حروبه المادية في عقد واحد من الزمن في هذا العصر وبدون مبالغة (س. الشيخ، 2009، ص. 9-28).

ومن بين أهم النقاط الأساسية التي تضمنتها الوثيقة هي النداء الصريح لرجال السياسة وقادة العالم ورجال الدين والمفكرين والفلاسفة والفنانين إلى تفعيل قيم المحبة والسلام في خطاباتهم

وإنتاجاتهم ومقالاتهم (الطيب وفرنسيس، 2018، ص.ص.3-4)، ولا شك أن هؤلاء يعتبرون أعمدة المجتمعات وإلهم تعود أمور الناس من حيث توجههم في شتى مجالات الحياة، فمثلهم كمثّل حقول للاقتباس في المجتمعات، فإن صلح هؤلاء صلحت المجتمعات .

اللافت للنظر في هذه الوثيقة هو التطرق إلى أهم أسباب ودوافع الحروب والنزاعات في العالم وكثرة القتال والجرائم التي تحصد أرواح البشر بلا هوادة، فقد جاء فيها أن أهم أسباب أزمة العالم المعاصر يعود إلى تغييب الضمير الإنساني وإقصاء الأخلاق الدينية وكذلك استدعاء النزعات الفردية والفلسفات المادية التي تولّاه الإنسان وتضع القيم المادية الدنيوية موضع المبادئ العليا المتسامية (الطيب وفرنسيس، 2018، ص.4).

وفي هذا تذكرة بالتحوّلات التي شهدتها العالم بعد تحييد الدين وتعطيل دور رجاله، فكما هو معلوم فإن قيادة الحضارة كانت في الماضي شرقية بحتة، ثم صارت غربية خالصة (حضارة اليونان والرومان)، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية (حضارة المسلمين)، ثم سقوط حضارة الشرق وقيام حضارة الغرب، فورث الغرب القيادة العالمية، وها هو الغرب يظلم ويجور، ويطغى ويحار ويتخبط (البناء، 2001، ص.69).

وهذه الممارسات التي يقوم بها الغرب الحضاري، بفعل تشكّيك الكثير من المفكرين والفلاسفة الماديين وأصحاب النزعات الإنسانية، وتيارات الإنسانية (الأومانيسم) في المرحلتين الحديثة والمعاصرة في منابع النزعة الإنسانية في الدين، بل واعتبروا أن الدين لا تحتوي نصوصه إلا على الأمر بالقتال والحث على العنف (الرفاعي، 2018، ص.196)، وفي المقابل أسس هؤلاء لفكر بعيد عن الدين فنتج عنه تقسيم العالم إلى طبقات، بل حتى أن هناك دعاوى منهم لإيقاف الطعام والمساعدات عن الآخر غير الغربي وغير الأبيض (الرماح، 2018، ص.ص.95-96).

والحاصل من سيطرة الفكر المادي ونيابته عن الفكر الديني الكنسي في الغرب، هو الصدامات العنيفة بين الغرب وباقي العالم، وساد في الأرض حروب ومعارك، ففقدت الإنسانية صفتها، وهو ما عبر عنه ميشال فوكو (MICHEL Foucault) عبر شعاره الشهير موت الإنسان، بعدما رأى وشاهد وحشية وعنف الاستعمارات الغربية التي اجتاحت دول العالم الثالث (الرفاعي، 2018، ص.199).

وأما الفلسفة المادية التي قامت على تحييد الدين وإعطاء المادة طابع اللاهوتية في كل شيء هي إحدى أهم أسباب ودواع حروب البشر، في القرن الماضي، ومطلع هذا القرن في العالم، مثل الفلسفة الماركسية والشيوعية والداروينية والبرجماتية، فقد تسببت تصدير قرارات العالم والعلاقات بين الشعوب والأمم (المسيري، 2010، ص.7)، كما أنها تمارس العنف والتطرف بداع التفوق الحضاري واستمرارية الرقي والتطور، والحاصل هو دخول الناس في دوامة ما بين تطرف علماني إلهادي، أو تطرف ديني مبني على التعصب الأعمى والنتائج هو حالة العالم المأسوية اليوم التي تقف على حافة حرب عالمية تدميرية ثالثة (الطيب وفرنسيس، 2018، ص.ص.4-5).

وأكد البابا فرنسيس والشيخ الطيب في هذه الوثيقة على ضرورة الحذر من الانغماس في حب الملذات الدنيوية، وإقصاء المهمشين من الناس، واجتناب العنف بكل أشكاله، وذلك لا يكون إلا بإيقاظ النزعة الدينية، من أجل حماية الأجيال القادمة والنشء الذي لن يكون إلا إفراسا لما يتعلمه من مجتمعه، فالوثيقة التي حرص البابا فرنسيس وشيخ الأزهر، على إيصالها للعالم، هي رمز للتسامح والتعاون لتفتح أبواب العيش المشترك، فكما أن في المسيحية نداء السيد المسيح إلى المساواة بين الناس وتوصيات لأتباعه في أن يعاملوا الناس بمثل ما يحبون أن يعاملوا به فكانت دعوته تصحيحا للفساد الذي سبق دعوته (الواعي، 1988، ص.47).

إن العيش المشترك السلمي والهادف، القائم على روح التسامح بين الناس مهما كانت اختلافاتهم الدينية وخلفياتهم الثقافية، لن تقوم في هذا العصر إلا بإعادة رد الاعتبار للدين كمصدر وحيد لتأصيل الأخلاق والقيم، وبلا شك أن إحياء النزعة الإنسانية في الدين يسارع في تقويض ثقافة الاستبداد، ويفضح المشاريع المادية الزائفة التي لم تؤسس إلا لخدمة الفئويات وبعض الأمم المتعالية (الرفاعي، 2018، ص.ص.197-198)

خاتمة:

إن انبعاث الديانات والكتب والرسالات كان منعطفا تاريخيا في حياة الناس جميعا وتحولا حضاريا متميزا في نهج حياتهم وتعاملهم، فتحول الخطاب الاجتماعي من طابع القوميات المحدودة والمؤسسة على العرق والدم إلى طابع الشمولية والسمو في التعامل، فانتشرت بذلك دعواتها في الأمصار، وتعممت نظراتها بين الأمم والجماعات، فأحدث ذلك تكاملا في المقاصد والغايات.

فالديانات هي السبيل الوحيد في إصلاح ما أحدثه العقل البشري، فإن تفرق الناس أو تقاتلوا أو تشتتوا فلا ملجأ إلا للدين في تحقيق العيش المشترك والسلم بين الناس، وآليتهم في تحقيق ذلك هي الحوار والإقناع، ونبذ العنف، فلم يقم مذهب من المذاهب، ولم تنشر الأفكار عبر الزمان إلا عن طريق ذلك، وهي سنة جميع الأنبياء والمرسلين.

والحوار الهادف الذي يطمح إليه المسلمون والمسيحيون اليوم، والذي نصت عليه الوثيقة التي حرص على تنفيذها أهم مرجعين للمسلمين والمسيحيين، يجب أن يتميز باحترام الثوابت والقيم والخصوصيات والثقافات والعقائد وسائر أعراف الأمم، لا يقوم على الإكراه والإلغاء الآخر ويشمل جميع الجوانب السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والأدبية، ويكون مبني على التعارف والاعتراف، ويبعد كل مظاهر الخلاف، والتصادم، ويهدف إلى التعاون.

العلاقات السليمة والحوار دور كبير في تحقيق التواصل الحضاري وبناء الثقافات والتعايش السلمي وهذا لا يتم إلى بمعية الآخر، لتسود القيم الفاضلة وتتحقق مبادئ العيش المشترك في ظل التعدديات الثقافية والدينية في المجتمع الواحد، وهكذا تقوم الإنسانية، ويصل فيها الإنسان إلى أهم وأسمى غاياته التي يطمح لتحقيقها دائما وهو بينته وثيقة الأخوة الإنسانية فكانت هذه المحاولة بمثابة الخطوة الفعالة التي تذيب وتزيل تراكمات خلفتها أطراف سعت ومازالت تسعى لتمديد القطيعة التي تتمخض عنها أعمال العنف والتطرف، لتبقي العالم أجمع في حالة خوف ورهاب من عدو وهمي نسجت صورته العصبية ودعاتها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو خليل شوقي، (1995)، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، (ط1)، دار الفكر المعاصر، بيروت.
2. أبو خليل شوقي، (2011)، أطلس انتشار الإسلام، (ط1)، دار الفكر، دمشق.
3. أحمد الطيب والبابا فرنسيس، (2019، فبراير)، وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي.
4. أصف حسين، (2012)، صراع الغرب مع الإسلام، (ط1)، دار الفكر المعاصر، الرياض.
5. البنا حسن، (2001) مجموعة الرسائل، (ط1)، دار الدعوة، الإسكندرية.
6. الترمذي محمد بن عيسى، (2014)، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، مج4، (ط1)، دار التأصيل، القاهرة.
7. الحسن يوسف، (1997)، الحوار المسيحي الإسلامي الفرص والتحديات، (ط1)، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي.
8. الرفاعي عبد الجبار، (2018)، الدين و النزعة الإنسانية، (ط3)، مركز دراسة فلسفة الدين، بغداد.
9. الرماح ابراهيم، (2018)، الإنسانية المستحيلة، (ط1)، دار دلائل للنشر، الرياض.

10. العلواني طه جابر ، (2003)، *الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي*، (ط1)، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
11. أرنولد سير توماس، (1970)، *الدعوة إلى الإسلام*، (ط2)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
12. القحطاني مسفر، (2015)، *صدام القيم*، (ط1)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.
13. الشريف محمد موسى، (2003)، *التقارب والتعايش مع غير المسلمين*، (ط1)، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة.
14. السمك محمد، (1998)، *مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي*، (ط1)، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
15. السباعي مصطفى، (1998)، *من روائع حضارتنا*، (ط1)، دار السلام، القاهرة.
16. الواعي توفيق يوسف، (1988)، *الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية*، (ط1)، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.
17. المسيري عبد الوهاب، (2010)، *الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان*، (ط4)، دار الفكر، دمشق.
18. إدريس جعفر شيخ، (2011)، *صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي*، (ط1)، مجلة البيان، الرياض.
19. المحجوبي خالد إبراهيم، (2008)، *الاستشراق والإسلام*، (ط1)، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي.
20. أوغستاين أرشي، (2011)، *الحرب على الإسلام*، ت: محمد الشماخ، (ط1)، صفحات للدراسات والنشر، دمشق.
21. بروكلمان كارل، (1968)، *تاريخ الشعوب الإسلامية*، (ط5)، دار العلم للملايين، بيروت.
22. بن هشام عبد الملك، (1995)، *السيرة النبوية*، مج 1، (ط1)، دار الصحابة للتراث، طنطا.
23. حميد الله محمد، (1985)، *مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة*، (ط5)، دار النفائس، بيروت.
24. حوراني ألبرت، (1994)، *الإسلام في الفكر الأوروبي*، (ط1)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.
25. خان أغا وعلي زكي، (1947)، *أوروبا والإسلام*، (ط1)، منشورات دار المكشوف، بيروت.
26. الشيخ نافيد، (2009)، *تعداد الضحايا استعراض كمي للعنف السياسي عبر الحضارات العالمية*، (ط1)، المركز الملكي للبحوث والدراسات الإسلامية، الأردن.
27. سعيد إدوارد، (2005)، *تغطية الإسلام*، ت: محمد عناني، (ط1)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.
28. صبره عفاف، (1985)، *المستشرقون ومشكلات الحضارة*، (ط1)، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.
29. عمارة محمد، (2008)، *الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء*، (ط1)، دار الشروق، القاهرة.
30. عبد السلام جعفر والسايح أحمد، (2006)، *المسلمون والآخر أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي*، (ط1)، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة.
31. مونتاييت بيدر ومارتينيت وبراو كارمن رويث، (2015)، *أوروبا الإسلامية سحر حضارة ألفية*، ت: ناديا طافر شعبان (ط1)، مؤسسة الفكر العربي، بيروت.
32. منصور طارق، (2008)، *المسلمون في الفكر المسيحي*، (ط1)، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة.
33. هونكة زيفريد، (1995)، *الله ليس كذلك*، ت: غريب محمد غريب، (ط1)، دار الشروق، القاهرة.